السورة الثالثة

سورة الفلق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ ﴾

هذه هي السورة الثانية من القرآن الكريم بترتيب السوَر التراجعيّ، وعدد كلماتها ٢٣ ولكنّنا سنتوقّف فيها عند ٣٨ من المواقع اللغويّة الجديدة.

ولهذه السورة، مثلها مثل باقي سوَر القرآن الكريم، شخصيّتها اللغوية المتميّزة بما فيها من ألفاظٍ جديدةٍ لا تتكرّر في السوَر الأخرى (الفلق، غاسق، وقب، النفّاثات، العُقد، حاسد، حسد). وتنفرد السورة أيضاً بعلاقاتٍ نحويّةٍ جديدة، ولا سيّما وصف النكرة، في آيتين متتاليتين، بالظرف (إذا)، ثمّ بالعلاقات الفكريّة الخاصّة جدّاً، كالاستعاذة من شيءٍ بمن أوجد هذا الشيء. وهناك أيضاً الصور العلميّة الكاشفة في لفظ (الفلق) ولفظ (وقب). وأخيراً فإنّ معظم صيغها التعبيريّة ممّا لا يتكرّر في القرآن أبداً.

أولاً: الألفاظ والمصطلحات

١- قل:

(فعلٌ قرآنيّ، وابتداءٌ غير معهودٍ في فنوننا الأدبيّة، ومعنىً جديدٌ للفعل، وغير متلوٍّ باللام، ومتكلّمٌ ومخاطَبٌ غير محدّدين، وجوابٌ لشرطٍ مقدّر):

ينطبق على هذا اللفظ ما ذكرنا عن صنوه في مطلع سورة (الناس). إنه جديدٌ على العربيّ، بوصفه:

أ- ابتداءً غير معهود لأيّ فنٍّ أدبيّ،

ب- صادراً من متكلّمٍ مجهولٍ أو غير محدّد،

ت- موجّهاً إلى مخاطَبٍ مجهولٍ أو غير محدّد،

ث- يحمل معنى: ردّد، أو: اقرأ، بدلاً من المعنى التقليديّ: بلّغ، أو: أخبِر،

ج- غيرَ متعدٍّ باللام كما اعتدنا مع هذا الفعل في الشعر الجاهليّ،

ح- يتردّد بكثافةٍ غير عاديّةٍ في القرآن (٣٣٢ مرة، مقابل ٧ مرّاتٍ في مجموع ما وصلنا من الشعر الجاهليّ)،

خ- جاء جواباً لسؤال، أو لطلبٍ، أو لشرطٍ مقدّر، وحُذف مع الفاء الرابطة له.

٢- أعوذ:

ينطبق على هذا الفعل ما انطبق على صِنوه في سورة (الناس).

٣- الفلَق:

لفظٌ قرآنيٌّ آخر لم يعرفه العرب في الجاهليّة، بهذا المعنى على الأقلّ، وأقدم بيتٍ نعثر فيه عليه هو للشاعر أوس بن حجر (ت ٢ ق.هـ):

وبالأُدْمِ تُحدَى عليها الرِحال وبالشَولِ في الفَلَقِ العاشِبِ

obeikan.com

وعدا عن أنّ الشاعر كان ممّن امتدّ بهم العمر إلى عصر النبوّة، فإنّ معنى اللفظ في البيت لا يمتّ بصلةٍ إلى المعنى القرآنيّ. إنه هنا (المطمئنّ من الأرض بين الربوتين) -كما ورد في لسان العرب- أمّا معناه في القرآن، تبعاً للمفسّرين، فهو الصبح، وكذلك كلُّ ما انفلق، أي انشقّ، عن حياةٍ جديدة: من ضوءٍ، أو إنسانٍ، أو حيوانٍ، أو نبات، وقد يدخل المعنى الجاهلي، من هذا المفهوم، تحت المعنى القرآنيّ الجديد ما دامت الربوتان قد "انفلقتا" عن الأرض المنخفضة بينهما.

ويزيدنا ثقةً باختصاص القرآن الكريم بهذا اللفظ عدمُ وروده في الحديث الشريف، إلاّ في معرض سياقٍ قرآنيّ. ثمّ إنّه من خصوصيّات هذه السورة، فلا يتكرّر أبداً في غيرها من السوَر.

٤- غاسق:

لفظٌ قرآنيٌّ آخر للّيل لم يعرفه التراث الجاهليّ، كما يؤكّد لنا ما بين أيدينا من شعر تلك الحقبة، وتنفرد به هذه السورة فلا يتكرّر في القرآن مرّةً أخرى.

وبدهيٌّ أن نربطه باللفظ (غسق) الذي يعني ظُلمة أوّل الليل، وبالتعبير (غسَقَ الليلُ)؛ أي اشتدّت ظُلمته، و(غسقت العين)؛ أي أظلمت وانصبّ دمعها.

وأقدم بيتٍ يتضمّن هذا اللفظ في تراثنا الشعريّ يصادفنا عند الشاعر مجنون ليلى (ت ٦٨هـ):

ويومٍ كحَسوِ الطيرِ بِتنا ننوشُهُ على شُعَبِ الأكوارِ والليلُ غاسقُ

ولا يَرد اللفظ أبداً في الحديث الشريف إلاّ في معرض التعليق على الآية أو شرحها.

٥- وقَب:

وقْبُ العين: هو النُقرة أو التجويف الذي تكون فيه، نقول: وقَبتْ عيناه: إذا غارتا. ولكنّ القرآن الكريم أخرج اللفظ مُخرَجاً جديداً، رغم أنّنا لا نعثر عليه

في الشعر الجاهليّ، لا بالمعنى القرآنيّ ولا بغيره، ولا نجده كذلك في الحديث الشريف، إلاّ أن يكون في معرض الحديث عن هذه الآية أو شرحها، ولكنّنا نجد الاسم منه (وَقْب) مرّةً على الأقلّ في حديث الحوت الذي عثر عليه المسلمون (ولقد رأيتَنا نغترفُ مِن وَقْبِ عينِه بالقِلال)[1].

ولكم أن تتخيّلوا الخصوصيّة العجيبة لهذا الاستعمال القرآنيّ لو قرنتم المعنى المقترح هنا للّفظ (غاسق)، وهو (المنصبّ بشدّة) إلى المعنى الجديد للّفظ (وَقَب)، وهو (الإحاطة بالشيء على شكل استدارة تجويف العين)، لتدركوا معي أيَّ وصفٍ جديدٍ ومَهيبٍ ودقيقٍ وعلميٍّ للّيل يقدّمه لنا هذا التعبير القرآنيّ.

ولا يتكرّر اللفظ في القرآن خارج هذه السورة، فهو أيضاً من خصوصيّاتها.

٦- النفّاثات:

أوّل شاهدٍ في تراثنا الأدبي يرِد فيه هذا اللفظ، خارج القرآن الكريم، يعود إلى القرن الثامن الهجريّ وعند شاعرٍ أندلسيّ هو ابن خاتمة (ت ٧٧٠هـ) حيث يقول (والبيت من المنسرح):

مهما يَرُمْ عنكَ الصبرَ مالَ بهِ ألحاظُكَ النفّاثاتُ في العُقَدِ

فإن وجدناه قبل ذلك ففي صيغة المذكّر، وعند شاعرٍ من القرن الثالث الهجريّ هو ابن الروميّ (ت ٢٨٣ هـ) حيث يقول:

حُوْرٌ سَحَرْنَ وما نَفَثْنَ برُقْيَةٍ فبلَغْنَ ما لا يَبلغُ النفّاثُ

إنه إذن، قرآنيٌّ في لفظه، وقرآنيٌّ في دلالته على الساحر، وقرآنيٌّ في تخصيصه بالسواحر (جمع ساحرة) فلا يشمل السَحَرة (جمع ساحر)، بل قيل إنّه، أو السورة كلّها، نزلت في بنات لَبِيد بن أعصَم اليهوديّ اللواتي حاولن أن يَسحَرْنَ النبيّ ﷺ.

واللفظ، مرّةً أخرى، خاصٌّ بهذه السورة فلا يتكرّر في غيرها، ولا وجود له في الحديث الشريف، إلاّ أن تُذكر فيه هذه الآية.

(١) الشيباني، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، مرجع سابق، ج٢٢، ص٢٤٢، حديث رقم ١٤٣٣٨.

وهكذا تختصّ هذه السورة القصيرة وحدها بسبعة ألفاظٍ لا تشاركها فيها أيّةُ سورةٍ أخرى في القرآن، وهي: (الفلق، غاسق، وقَب، حاسد، حَسد، النفّاثات، العُقد)، وأربعةٌ من هذه الألفاظ السبعة تختصّ بالقرآن وحده ولم تعرفها العربيّة ولا لغة الحديث الشريف وهي (الفلق، غاسق، وقَب، النفّاثات).

ثانياً: الصيغ والعلاقات اللغويّة

١- قل أعوذ:

عرفنا في حديثنا عن سورة (الناس) جِدّة هذا التعبير على اللسان العربيّ.

٢- الفلَق:

إنّها صورةٌ كاملةٌ في لفظٍ واحد، تحمل كلّ أبعاد الصورة البيانيّة، وإضافةٌ قرآنيّةٌ حقيقيّةٌ لقاموسنا اللغويّ والبلاغيّ معاً من خلال الصورة الجديدة التي حملها اللفظ.

وهو، بمعناه الجديد، صورةٌ لكلّ ما "تنفلق" عنه الكائنات، بمظاهرها المختلفة، الكونيّة والأرضيّة والإنسانيّة والحيوانيّة والنباتيّة، وهو بمعنىً آخر إحدى الصور الإعجازيّة الجديدة في القرآن التي تُؤكّد وحدة الخَلق وولادة كلّ المخلوقات من فلْقتين مهما اختلفت أشكالها، ودلالة وحدة المخلوق هذه، من ثَمّ، على وحدة الخالق.

٣- ربِّ الفلق:

شأن هذا التركيب في السورة شأن (ربّ الناس) و (ملك الناس) في السورة السابقة، فعدم وجود لفظ (الفلَق) في التراث الجاهليّ سيعني بالبداهة عدم وجود التركيب (ربّ الفلق) أيضاً، فهي إذن إضافةٌ جديدةٌ غير معهودةٍ إلى لفظ (الربّ)، وتعبيرٌ آخر جديدٌ يدخل المعجم التعبيريّ للغتنا العربيّة.

ولن نجد هذا التعبير بعد ذلك، لا في الحديث الشريف ولا في الشعر العربيّ، حتى مجيء الشاعر الرجّاز رؤبة بن العجاج (ت ١٤٥هـ) حين قال:

وَسْوَسَ يدعو مُخلِصاً ربَّ الفلقْ سـرّاً وقد أوّنَ تأوينَ العُقَقْ

٤- مِن شرِّ ما خلَق:

ربّما لا نعي من النظرة الأولى، أو ربّما ولا الثانية ولا الثالثة، البعد الجديد وغيرَ العاديّ لهذه الآية. إنه تعالى يدعونا في الآية الأولى إلى أن نستعيذ من شرٍّ ينصّ في الآية الثانية على أنّه هو الذي خلقه وأوجده.

تخيّل أنّك تقول لصغيرك:

سأعلّمك يا ولدي كيف تحمي نفسك من لسعة الأفعى التي وضعتُها تحت وسادتك!!

إننا نردّد في هذه السورة ما معناه: أطلب حمايتك من شرّ أنت وضعتني في داخله!! وإذا أردنا للمضمَرات في هذه الآية أن تظهر لقلنا:

أعوذ بربّ الفلق من شرّ ما خلق ربُّ الفلق!!

وسيعيننا على فهم طبيعة الآية ما يُروى عن رسول الله ﷺ أنّه كان يدعوه تعالى بقوله: "وأعوذُ بكَ منكَ"[١]، وكذلك بقوله ﷺ: "لا ملجأ ولا مَنجَى منكَ إلاّ إليك."[٢]

وإذا كانت اللغة وعاءً للفكرة حقاً، ولا يمكن الفصل بينهما، شأن الروح والجسد، فبدهيٌّ أن تقع لغة هذه الآية أيضاً، بَلْهَ الفكرةَ نفسها، في رأس العربيّ الأول موقع الدهشة والحيرة والاستغراب.

---

(١) ابن خزيمة، محمد بن إسحاق، **صحيح ابن خزيمة**، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، بيروت: المكتب الإسلامي، ١٣٩٠هـ، ١٩٧٠م، ج١، ص٣٣٥، حديث رقم: ٦٧١.

(٢) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج١، ص٩٧، حديث رقم: ٢٤٤.

٥- غاسقٍ إذا وقَب:

هذا التعبير هو إضافةٌ أخرى قدّمها القرآن الكريم إلى قاموسنا البيانيّ. ففيه لوحةٌ جديدةٌ تصوّر الليل وكأنّه طُوفانٌ كبيرٌ ينصبّ من السماء ليشمل الأرض ويلتفّ حول (وَقْبِها) المستدير، كما يلتفّ مِحجرُ العين حول تجويفها.

٦- ومِن شرِّ غاسقٍ إذا وقَب:

شأن هذه الآية شأن سابقتها في الغرابة، ولكن ممّا يقلّل من وقْع غرابتها أنّ الضمير في (وقَب) لا يعود على اللفظ (ربّ) أي (خالق الغاسق) -كما في الفعل (خلق) الذي اختُتمت به الآية السابقة- بل على (الغاسق) نفسه، وإن كان هذا الغاسق، الذي يعلّمنا ربُّه كيف نستعيذ من شرّه، هو في النهاية من مخلوقات هذا الربّ أيضاً.

إنها إذن، مرةً أخرى، دعوةٌ من الخالق لنستعيذ به من مخلوقه.

٧- ٨- شرِّ غاسقٍ/ شرِّ حاسدٍ:

اعتادت الأذن العربية في المعطوفات، من جُمَلٍ أو أشباهِ جمل، أن تجري على نسقٍ لغويٍّ أو نحويٍّ متشابهٍ، أو متقاربٍ على الأقلّ، كما في الحديث النبويّ:

- "من اغتسل يومَ الجمعةِ غُسْلَ الجَنابةِ (أي غُسلاً مثلَ غُسل الجَنابة) ثم راح (أي إلى صلاة الجمعة) فكأنّما قرّبَ بَدَنةً (أي ضحّى بناقةٍ)، ومن راح في الساعة الثانية (أي من وقت الاغتسال) فكأنّما قرّب بقرةً، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنّما قرّب كَبْشاً أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنّما قرّب دَجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنّما قرّب بيضة.."[1]

لاحِظ كيف تعاطفت الجمل في الحديث على نسقٍ واحد، فالجمل الأربع الأخيرة كلّها بدأت بالشرط وفعله (ومن راح) وانتهت بأداة التشبيه (فكأنّما) يليها

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج١، ص٣٠١، حديث رقم: ٨٤١.

openkan.com

فعلٌ ماضٍ فاعله مستترٌ تقديره (هو) ثم مفعولٌ نكرةٌ (بقرةً – كبشاً – دجاجةً – بيضةً). وبدهيٌّ ألاّ تتوقّع آذاننا ونحن نقرأها أن تخرج إحدى هذه الجمل فجأةً عن نسق الجمل الأخرى، فتصبح مثلاً: فكأنّما قرّب الكبش، أو: فكأنّما يقرّب كبشاً، أو: فكأنّ الرجل يقرّب، وهكذا..

لقد خرجت الآية ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ .. ﴾ عن السياق الذي بدأته الآية التي سبقتها ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ .. ﴾، إذ أضيف اللفظ (شرّ) هناك إلى معرفةٍ (وهو الاسم الموصول: ما) –لا يَخفَى طبعاً أن الاسم الموصول هو واحدٌ بين سبعة أنواعٍ من المعرفة– ولكنه أضيف هنا إلى نكرةٍ (غاسقٍ)، رغم أنّه يعود في الآية التالية إلى السياق الأول فيضاف إلى معرفةٍ (النفاثات) ليعود بعدها في الآية الرابعة فيضاف إلى نكرةٍ (حاسدٍ).

هذا التنوّع يدخل في باب الالتفات، وهو، رغم حدّة خروجه على المألوف، يأتي في نظامٍ إيقاعيٍّ متوازنٍ ومتناغمٍ يخفّف من أي تأثيرٍ سلبيٍّ يُمكن أن يقع في حالاتٍ لغويّةٍ بشريّةٍ مماثلة.

لاحظ معي مثلاً توازن الآيتين ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ / وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ مع تشابُه ثلاثة ألفاظٍ فيهما من أصل خمسةٍ (ومن – شرّ – إذا) وتناظرِ مواقع كلٍّ من هذه الألفاظ في الآيتين.

٩ إلى ١٢– مِن شرِّ (ابتداء الآيات الأربع بحرف جرٍّ متعلّقٍ بوحدةٍ سابقة):

لن أتحدّث عن كلّ نقطةٍ من هذه النقاط منفصلةً عن غيرها، فالآيات الأربع الأخيرة من السورة تبدأ، كما ترون، بشِبه جملةٍ مؤلّفٍ من حرف الجرّ (مِن) مع مجروره، وهذا الفعل معلّقٌ في الحالات الأربع بالفعل نفسه (أعوذ) الذي جاء في مطلع السورة.

ولا شكّ أن ابتداء وحدةٍ لغويّةٍ مستقلّةٍ -أي الآية- بشِبه جملةٍ متعلّقٍ بفعلٍ سبق هذه الوحدة؛ أمرٌ غير معهودٍ في النثر العربيّ التقليديّ، ليس في الفترة الجاهلية فحسب، بل حتى اليوم، فضلاً عن التأثير الخاصّ الذي يُحدثه اجتماع أربع حالاتٍ متتاليةٍ في سورةٍ قصيرةٍ كهذه.

١٣ إلى ١٦- يضاف إلى ذلك أنّ التعبيرات الأربعة جميعاً (أعوذ من شرّ) إضافةٌ قرآنيّةٌ جديدةٌ على اللغة العربيّة، ولا نجد أيّاً منها في الشعر الجاهليّ، كما أنّها مختصّةٌ بهذه السّورة وحدها فلا تتكرّر مرّةً أخرى في القرآن الكريم.

١٧- النفّاثاتِ في العُقد:

ما تعقده الساحرة من عُقَدٍ في سحرها، من خيطٍ أو حبلٍ أو غيرهما، لم يرتبط في تراثنا، قبل هذه الآية، بالنفث أو النفّاثات.

حتّى إنْ حدث أن وُجد اللفظان أو أحدهما في الشعر الجاهليّ، وهذا لم يحصل كما بيّنّا، في أيٍّ من النصوص التي بين أيدينا، فإنّنا لن نجد هذا التركيب الذي يجمع بين اللفظين معاً، بل إننا لن نجد التعبير مطلقاً في غير هذه الآية من القرآن الكريم، فهو تركيبٌ اختصّ بسورة (الفلق) وحدها.

١٨- ٢١- غاسقٍ إذا وقب/ حاسدٍ إذا حسد:

هذه الـ(إذا) في الآيتين أخذت منّي أيّاماً من الحَيرة وأنا أبحث في كتب النحو والتفسير وإعراب القرآن وتأويل مُشكِله، لعلّي أظفر بإعرابٍ لها أطْمئنّ إليه ويجيب عن تساؤلاتي الكثيرة حولها، وخرجت في النهاية بحكمٍ كان لا مفرّ من اتخاذه: إنّ لها خصوصيّةً عجيبةً لا تشاركها فيه إلاّ آيةٌ واحدةٌ في سورة (النجم).

فالأداة (إذا) ترِد في القرآن الكريم مئات المرّات، وبمعانٍ تتنوّع بين:

أ- الشرط مع الزمان، كقوله تعالى ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا﴾، فهي هنا أداة شرطٍ كاملةٌ لَحِقَها فعلُ الشرط (رَأَيْتَهُمْ) ثم جواب الشرط (حَسِبْتَهُمْ) ولكنّها

احتفظتْ، مع ذلك، بظرفيّتها الزمانيّة لأنها تعني (حين) في الوقت نفسه: (حين تراهم..).

ب- الزمان وحده من غير شرط، كقوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ ﴾، فهي هنا تحمل معنى الظرفيّة الزمانيّة: (حين تطلُع الشمس) من غير أن يرافقه معنى الشرط.

ت- الفجائيّة، وهي تخلو خلوّاً شبه تامٍّ من معنى الزمن أو الشرط كقوله تعالى ﴿ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ فهي هنا بمعنى (فجأةً).

إنّنا لو أحللنا محلّ (إذا) في الآيتين كلمةً تُغني عنها، فقلنا في الأولى: ومن شرّ غاسقٍ واقبٍ، وفي الثانية: ومن شرّ حاسدٍ يحسد، لكان إعراب (واقبٍ) صفةً لـ (غاسقٍ) وإعراب جملة (يحسد) أيضاً صفةً لـ (حاسدٍ) أي (حاسدٍ حَسّادٍ).

طبعاً لا تخلو (إذا) في آيتَيْ (الفلق) من معنى الزمنيّة أيضاً، فكأنّ المعنى الدقيق في الأولى (غاسقٍ حين يَقِبُ) وفي الثانية (حاسدٍ حين يحسد).

ولأننا تعلّمنا أنّ الظرف وحرف الجر لا بدّ لهما من فعلٍ أو عملٍ أو حَدَثٍ يتعلّقان به، أي يقع أو يحدث فيهما، ونحن لا نجد هذا الحدث هنا إلاّ في الفعل (أعوذ) أي: أعوذ منه حين يقب، وأعوذ منه حين يحسد، فيكون مجموعُ ما تعلّق بهذا الفعل إذن سبعةَ أشباهِ جملٍ:

أ- (بربِّ)،

ب – ت – ث – ج – (مِن شرِّ) – في الآيات الأربع –،

ح – خ (إذا) – في الآيتين –.

ويمكن أن نختصر الحالة بكاملها في هذا الشكل الرياضيّ المبسّط:

أعوذ به منه ومنه ومنه ومنه حين وحين..

وهذا أيضاً من أندر الحالات الإعرابيّة في لغتنا.

لقد وعدتُ في مقدّمة هذا البحث بألاّ أخوض مع القارئ في مجاهل النحو والصرف واللغة والبلاغة، ويجب أن أعترف بأنني أخوض به الآن واحدةً من أعقدِها، ولكنني أعدكم بأن أحاول أن نخرج منها بسلام، ونرسو على برّ الأمان بعد أن نكون قد استوعبنا حقاً ما نبحث عنه من جِدّةٍ في الآيتين.

لنحاولِ الآن إيجاد بديلٍ لـ (إذا) في الأبيات الجاهليّة التالية، تماماً كما فعلنا في الآيتين:

وواضحٍ أشنبِ الأنيابِ ذي أشَرٍ كالأُقحُوانِ إذا ما نَورُهُ لَمعا

لقيط بن يعمَر (ت ٢٤٩ ق.هـ)

لايَصلُحُ الناسُ فوضَى لاسَراةَ لهمْ ولاسَراةَ إذا جُهّالُهُمْ سادوا

الأفوه الأوديّ (ت ٥٤ ق.هـ)

فبلَّغَهُ دَلَجٌ دائمٌ وسيرٌ إذا صَدَحَ الجُندبُ

المسيّب بن مالك (ت ٤٨ ق.هـ)

ففي البيت الأول نستطيع أن نقول (كالأقحوان لامعاً) أو (لامعاً نَورُه أو زهرُه) فيحلّ محلّ (إذا) الزمانيّة حالٌ مفردة (لامعاً) -نذكُر هنا القاعدة النحويّة التي تقول إنّ الجمل بعد النكرات صفات وبعد المعارف أحوال- وقد جاءت جملة (إذا ما نَوره لمعا) بعد اسمٍ معرفةٍ (الأقحوان) فلا شأن لها إذن بالآيتين، لأنها جاءت فيهما بعدَ نكرة.

ولا يدخل في ذلك البيتُ الثاني أيضاً، ففي (إذا) معنى الشرط؛ أي: إذا حَكم الجَهَلة اختفى السادة والأشراف. وليس في الآيتين معنى الشرط.

أمّا في البيت الثالث فقد جاءت (إذا) زمانيةً وسبَقها نكرةٌ (سَيرٌ) ولكنّنا لا نستطيع أن نُحلّ محلّها صفةً لهذه النكرة، فلو قلنا: سيرٌ صادحٌ (ولا نستطيع أن نقول: صادحٌ جُندبُه، لأنّ الجُندب ليس جزءاً من السير) فإنّنا نخطئ إذ ننسب هذه الصفة إلى السير، وهي في البيت للجندب، أي: جندبٌ صادحٌ.

أمّا آيتا سورة (العلق): ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ ﴾ فهما أكثر انسجاماً مع شروط آيتَيْ الفلق:

أ- لأنّه قد سبق (إذا) هنا اسمٌ نكرةٌ (عبداً)

ب- لأنّنا نستطيع أن نحلّ محلّها، مع فعلها، صفةً لهذه النكرة فنقول (عبداً مصلّياً).

ولكنّ فرقاً دقيقاً جداً بينها وبين آيتَيْ (الفلق) يجعلنا نستبعد هذه الحالة عن شروطنا، فما هو يا ترى؟

إنّ (إذا) في هذه الآية زمنيّةٌ وليست شرطيّة، ومع هذا ألم تشمّوا معي فيها رائحة الشرط؟

نحن نستطيع أن نتوقّف في الآية الأولى عند (غاسقٍ) وفي الثانية عند (حاسدٍ) من غير إخلالٍ مهمٍّ في المعنى، ولكن هل نستطيع أن نتوقّف عند (عبداً) في آية سورة (العلق) من غير أن نخلّ بالمعنى؟

إنّ النهي للعبد هنا هو عند الصلاة، وليس في مطلق الأوقات، ولذلك امتنع فيها الاستغناء عن الفعل بعد (إذا) كما فعلنا بسهولةٍ في آيتي الفلق.

أمّا الآية (٤٦) من سورة (النجم)، فهي وحدها التي وجدناها تدخل في حالة هاتين الآيتين: ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۝٤٥ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ۝٤٦ ﴾.

فمن السهل هنا إحلال صفةٍ للاسم (نطفة) محلّ (**إذا تُمنى**) فنقول: (من نُطفةٍ مَمْنيّةٍ) وهذا ما تنفرد به الآيات الثلاث في القرآن الكريم ثمّ لا نجد مثيلاً له في سائر تراثنا العربيّ.

ثالثاً: السبائك القرآنيّة

ما زلنا نتذكّر طبعاً ما قصدناه بهذا المصطلح الجديد، ونتذكّر بعض النماذج التي قدّمناها لتوضيحه، وكيف أنّ لكلّ عصرٍ قوالبَه اللغويّةَ الخاصّة التي تسود فنونَه الأدبية عامّةً، والشعريّ منها خاصّةً، فتتردّد هي نفسها عند الكتّاب والشعراء.

وهكذا تردّدت السبيكة التي وزنها: (وعملٍ كعملِ العمل) عند الشعراء الجاهليين ومَن بَعدَهم، بدءاً من امرئ القيس (وليلٍ كمَوجِ البحر) إلى الشَّنْفرَى (وخَرقٍ كظَهر التُرس) إلى حاتم الطائي (وخرقٍ كَنَصلِ السيف)، كما تردّدت سبيكة (ألا أيّهذا العاملِيْ) منذ طَرَفة بن العبد (ألا أيّهذا اللائمي – أو الزاجري –) إلى الأعشى (ألا أيّهذا السائلي) إلى الأخطل (ألا أيّهذا المُوعِدي)..

ولو توفّرت دراساتٌ لهذا الموضوع، لأمكننا إعادةُ معظم ما ورد في الشعر من عباراتٍ إلى فصائل أو أُسَرٍ، أو سبائك لغويةٍ، تمكّن منها الشعراء، أو تمكّنت منهم، ولم يعودوا قادرين على التخلّص منها أو إيجاد غيرها.

فإن وُجِد من استطاع منهم ذلك؛ فهم أولئك الأعلام الكبار في تاريخ الشعر العربي، ممّن أصرّ في سباق العبقريّات أن يقفز فوق الحبال، ولم يرضَ أن يمرّ من تحتها، وعلى رأسهم المتنبّي طبعاً. ولكنّ هؤلاء العباقرة لم يكن لديهم ما يقدّمونه من جديدٍ إلاّ سبيكةً هنا وسبيكةً هناك، إذ لم تكن سبائكهم الجديدة تغطّي أكثر من ٥ – ١٠٪ من لغتهم الشعريّة، على حين جاء القرآن الكريم، ومرَّة واحدة، بلغةٍ ليس فيها من السبائك المعروفة قبله إلا مثل هذه النسبة المئويّة البسيطة أو أقلّ، هذا إن وُجد بين سبائكه على الإطلاق مثل تلك السبائك.

لقد نزل القرآن الكريم ليفاجئ العرب بلغةٍ جديدةٍ تتجاوز سبائكها وألفاظها وتعبيراتها وتراكيبها وصورها وعلاقاتها اللغويّة والبيانيّة؛ كلّ ما عهدوه في نثرهم أو شعرهم، فكانت لغتُه بمثابة اختراقٍ لحاجز الصوت، أو ربّما حاجز الضوء عندهم.

كانوا في حَيرةٍ غير عاديّةٍ وهم يحاولون أن يوجدوا مسوِّغاً علميّاً، أو يضعوا تحليلاً نقديّاً للصدمة التي أحسّوها وهم يستمعون إلى اللغة الجديدة.

ولكنّ الوسائل النقديّة عند العرب، ولا أقول الحسّ النقديّ، لم تكن من التطوّر آنذاك بحيث تسمح لهم بأن يَخرجوا بتقريرٍ علميٍّ تحليليٍّ مفصّلٍ لطبيعة الانفجار الذي أحدثه القرآن في لغتهم، فكان أقصى ما استطاعوا أن يصفوا به كلام الوحي هو قولة الوليد بن المُغِيرة المشهورة، وهو الذي أصرّ على الشرك حتّى النهاية:

"إنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّه لمُثمرٌ أعلاه مُغدِقٌ أسفلُه، وإنّه لَيعلو ولا يُعلى، وإنّه لَيَحْطِمُ ما تحتَه".

ودعونا نستعرض الآن ما في هذه السورة الكريمة من سبائك قرآنيّةٍ جديدة:

١- قل أعوذ بربّ الفلق:

هذه نسخةٌ أخرى من السبيكة التي افتُتحت بها السورة السابقة ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ ولا داعي لتفصيل تركيبتها النحويّة من جديد.

٢- ٣- من شرّ غاسقٍ إذا وقب/ من شرّ حاسدٍ إذا حسد:

سبيكةٌ أخرى من السبائك اللغويّة العديدة التي أحدثها القرآن الكريم في العربيّة، وقد تكرّرت مرّتين في آيتين من هذه السورة القصيرة التي لا تتجاوز خمس آيات.

إنّها بناءٌ لغويٌّ فريدٌ يبدأ بجارٍّ ومجرورٍ (من شرّ) مَتْلُوَّين باسمٍ نكرةٍ (غاسقٍ/ حاسدٍ) ويتلو هذا فعلٌ ماضٍ للغائب المفرد (وقَب/ حَسد) مسبوقٌ في كلّ مرّةٍ بظرف الزمان (إذا)، وميزانها: (مِن عملِ عاملٍ إذا عملَ)

ولم تتكرّر هذه الصيغة في أيّة سورةٍ أخرى. وأقرب السبائك القرآنيّة إليها، وإن لم تُماثلها تماماً، قولُه تعالى:

- ﴿ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ﴾ [النجم: ٤٦] (مِن عُملةٍ إذا تُعمَلُ)

- ﴿ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ ﴾ [الأنعام: ١٤١] (اعملوا مِن عملِه إذا أعمَل)

٤- مِن شرِّ.. ومن شرّ (سبيكةٌ مركّبةٌ تشمل رؤوس الآيات الأربع الأخيرة):

إنّ تكرار شبهِ الجملة ﴿ مِن شَرِّ ﴾ في مطلع كلّ آيةٍ من الآيات الأربع الأخيرة يشكّل ما يمكن أن أسمّيَه "سبيكةً مركّبة" وهي السلك الذي ينتظم هذه الآيات الأربع فتتوالى فيه بشكلٍ إيقاعيٍّ متناغمٍ ومتوازنٍ يجعل منها وحدةً لغويّةً تتلاحق أجزاؤها الواحد بعد الآخر لتكوّن هذه السبيكة الجديدة.

وتكرار ﴿ مِن شَرِّ ﴾ في مطالع الآيات الأربع يناظر تكرار الحروف الأربعة (نّاس) في فواصل آيات سورة (الناس)، فكأنّ ﴿ مِن شَرِّ ﴾ هنا بمثابة قافيةٍ/ فاصلةٍ أماميّةٍ تأتي على رؤوس الآيات بدلاً من خواتمها، إنّها بمثابة قافيةٍ أو سجعةٍ من نوعٍ جديد، أو فاصلةٍ متقدّمةٍ تحلّ محلّ الفاصلة المتأخّرة المعتادة.

رابعاً: اللغة المنفتحة

١- قُل:

لهذا الفعل ما لشبيهه في سورة (الناس) من قوّةٍ إيحائيّةٍ كان يمكن أن تفتح أمام العربيّ الأوّل خياراتٍ عديدةً من التصوّرات عن:

أ- حقيقة المتكلّم وطبيعته،

ب- وحقيقة المخاطَب ومن هو.

٢- الفَلَق:

إنّ اتساع مفهوم الفعل (فَلَق) في قاموس العربيّة يمنح هذا الاسم الذي اشتُقّ منه شحنةً إيحائيّةً شديدة الإشعاع، فهي تتجاوز المعاني المحدّدة لجذره الأساسيّ في معاجمنا الرسميّة، لأنّها تأخذ بشيءٍ من كلٍّ من تلك المعاني لتبني أشكالاً جديدةً من التصوّرات والإيحاءات.

فإلى جانب المعنى الواسع والممتدّ للّفظ؛ إذ يغطّي، كما رأينا، كلّ ما انفلقت عنه الحياة من ضوءٍ أو إنسانٍ أو حيوانٍ أو نباتٍ، فإنّ معناه معرّضٌ لاحتمالاتٍ أخرى، كقول المفسّرين مثلاً إنّه جُبٌّ في جهنّم، تبعاً لبعض الأحاديث، ومن هنا تأتي قيمة اللفظ وتلوّنه وغناه.

٣- شرّ ما خلق:

إنّ في تعدّد صور الشرّ وأنواعه، من ناحية، وصيغة (شرّ) التي تحمل معنى الاسميّة العاديّة (سوء) إلى جانب معنى اسم التفضيل (أكثر شرّاً)، وكذلك في عموميّة الفعل (خَلَق) وسعتِه وتعدّدِه، من ناحيةٍ أخرى، إلى جانب الطبيعةِ الإبهاميّة لمعنى الأداة (ما) قبله، سواءٌ أكانت نكرةً تامّةً بمعنى (شيء) أم كانت اسم موصولٍ معرفةً؛ إنّ في ذلك كلّه ما يكفي لأنْ يَمنح هذا التركيب شحنةً تصوّريّةً عاليةً لا يحدّها شخوصٌ ولا أحداثٌ ولا زمانٌ ولا مكان.

٤- شرّ غاسقٍ إذا وقب:

يحمل اللفظ (غاسق) في طيّاته أطيافاً متداخلةً من المعاني، فذهبوا إلى أنّه: الليل إذا انصبّ ودخل، أو: الليل البارد، أو: الزمهرير، أو: القمر؛ لأنّه يُكسف فيغسق، أي يذهب ضوؤه ويسودّ إذا وقب (أي دخل في كسوف نهاية الشهر فيزداد نحسه ويزداد معه عملُ السَحَرة بالسحر المُورِث للمرض)، وفي حديث عائشة رضي الله عنها "نظر النبيّ ﷺ إلى القمر فقال: استعيذي بالله من شرّه فإنّه الغاسق

إذا وقب"[1]. وقيل أيضاً هو الليل إذا غاب الشفق، أو الشمس إذا غابت وغسقت، أي سبحت في الفلك، أو الثريّا إذا سقطت في أدنى الأفق، فيستعاذ منها لِما عُرف من كثرة الطَواعِين والأسقام عند سقوطها.

ثمّ إنّ إيجاد القرآن للفعل (وقَب) من الاسم (وَقْب العَين)؛ أي تجويفها، يرسم لنا صورةً أخّاذةً للّيل وهو يلتفّ حول الأرض التفاف محجر العين حول العين، وهو من الإعجاز العلميّ الرائد في الدلالة على كرويّة الأرض، ممّا لم تكن عقول العرب، أو عقول غيرهم في ذلك الوقت، لِتدركه وتكتشف حقيقته من خلال هذه الصورة القرآنيّة المبكّرة[2].

وإضافةً إلى ما يحمله كلٌّ من اللفظين (غاسق) و(وقب) منفردَين من ظلالٍ معنويّةٍ متعدّدة، كما رأينا، فإنّ اجتماعهما في تركيبٍ واحدٍ يولّد أطيافاً فكريّةً أوسع وأعمق تنداح معها صور الفكر والخيال في أجواءٍ جديدةٍ غير تقليديّة.

خامساً: جوامع الكَلِم

١- قل أعوذ بربّ الفلق:

على غرار ما جرى للآية الأولى في سورة (الناس)، تحوّلت هذه الآية من سورة (الفلق) إلى تعويذةٍ سريعةٍ يردّدها المسلم عند شعوره بالخوف أو القلق، كما أضحت اسماً آخر يُطلق على هذه السورة.

---

(١) النيسابوري، محمد بن عبد الله. **المستدرك على الصحيحين**، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، ط. ١، ١٤١١هـ، ١٩٩٠م، ج٢، ص٥٨٩، حديث رقم: ٣٩٨٩.

(٢) الغريب أن المشتغلين الكثُر في الإعجاز العلميّ اليوم لم يتنبّهوا في كتاباتهم، فيما أعلم، إلى هذه الصورة العلميّة المهمة والواضحة الدلالة على كرويّة الأرض، وإن وعدنا أنفسنا في هذا البحث بألاّ ندخل فيما ليس من اختصاصنا.

٢- النفّاثات في العقد:

شأنها شأن عباراتٍ قرآنيّةٍ أخرى كثيرة، تحوّلت هذه العبارة إلى مصطلحٍ جديد يجري على ألسنتنا للدلالة على السحرة، إناثاً كانوا أو ذكوراً، وبغضّ النظر عن الطرائق التي يتّبعونها في سحرهم، نفثاً في العُقد أو غيره.

٣- السورة بكاملها:

وكما تحوّلت سورة (الناس) إلى تعويذةٍ يوميةٍ للمسلمين يردّدونها في شتّى أمور حياتهم، تحوّلت سورة (الفلق) أيضاً لتكون لهم التعويذة اليوميّة المرافقة لها. وقد دأبت الأحاديثُ الشريفة على الجمع بين هاتين السورتين والتعاملِ معهما على صعيدٍ واحد، كما مرّ معنا في سورة (الناس)، وكما في الحديث:

- عن أبي سعيد الخُدرْيّ ﷺ قال: كان رسولُ الله ﷺ يتعوّذُ من الجانّ وعينِ الإنسان، حتّى نزَلتِ (المعَوِّذتان)، فلمّا نزلتا أخذ بهما وترك ما سواهما[١]

ويتنبّه الرازيّ إلى لطيفةٍ هامّةٍ في سورتَي (الفلق) و (الناس) فيقول: "إنّ المستعاذ به في السورة الأولى مذكورٌ بصفةٍ واحدة، وهي أنّه ربّ الفلق، والمستعاذ منه ثلاثة أنواعٍ من الآفات، وهي الغاسق والنفّاثات والحاسد، وأمّا في سورة (الناس) فالمستعاذ به مذكورٌ بصفاتٍ ثلاث: وهي الربّ والمَلك والإله، والمستعاذ منه آفةٌ واحدةٌ وهي الوسوسة. والفرق بين الموضعين أنّ الثناء يجب أن يَتقدّر بقدْر المطلوب، فالمطلوب في السورة الأولى سلامة النفس والبدن (أي قلّ الثناء لقلّة المطلوب: وهو السلامة في الدنيا)، والمطلوب في السورة الثانية سلامة الدِّين (أي زاد الثناء لأهمّية المطلوب: وهو سلامة الآخرة)"[٢].

---

(١) الترمذي، محمد بن عيسى. **الجامع الصحيح (سنن الترمذي)**، تحقيق: أحمد شاكر، بيروت: دار إحياء التراث، (د. ط)، (د. ت)، ج٤، ص٣٩٥، حديث رقم ٢٠٥٨.

(٢) فخر الدين الرازي، **التفسير الكبير**، مرجع سابق، ج ٣٢، ص١٨٢.

* * *

إنها ٣٨ نقطةً إعجازيةً جديدةً استطعنا أن نضع أيدينا عليها في هذه السورة القصيرة التي لا يتجاوز عدد ألفاظها ٢٣، ومن يدري، فلعلّ المستقبل يأتي لنا بمن يكتشف فيها المزيد من جوانب الإعجاز القرآنيّ وأسراره.

obeikan.com